كنت جانيًا عليه، وحقيقة أعتبته أنلت عتبه ألا ترى إلى قوله:

غضبت تميم أن تقتل عامر يوم النسار فاعتبوا بالصيلم

كيف جعلهم غضابًا، ثم قال فاعتبوا أي أزيل غضبهم والغضب في معنى العتب، والمعنى لا يقال لهم: أرضوا ربكم بتوبة وطاعة ومثله قوله تعالى: ولا يخرجون منها ولا هم يستعتبون.

فإن قُلْتَ: كيف جعلوا غير مستعتبين في بعض الآيات وغير معتبين في بعضها وهو قوله: وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين؟ **قُلْتُ:** أمّا كونهم غير مستعتبين فهذا معناه وأما كونهم غير معتبين فمعناه أنهم غير راضين بما هم فيه، فشبهت حالهم بحال قوم جنى عليهم فهم عاتبون على الجاني غير راضين عنه فإن يستعتبوا الله أي يسألوه إزالة ما هم فيه، فما هم من المجابين إلى إزالته **﴿ولقد﴾** وصفنا لهم كل صفة كانها مثل في غرابتها.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾.

وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشان كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم، ولكنهم لقسوة قلوبهم ومج أسماعهم حديث الآخرة إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا: جئتنا بزور وباطل.

كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾.

ثم قال: مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الجهلة ومعنى طبع الله منع الإلطاف التي ينشرح لها الصدور حتى تقبل الحق وإنما يمنعها من علم أنها لا تجدي عليه، ولا تغني عنه كما يمنع الواعظ الموعظة من يتبين له أنّ الموعظة تلغو، ولا تنجع فيه فوقع ذلك كناية عن قسوة قلوبهم وركوب الصدا والرين إياها فكانه قال: كذلك تقسو وتصدأ قلوب الجهلة حتى يسموا المحقين مبطلين، وهم أعرق خلق الله في تلك الصفة.

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾.

﴿فاصبر﴾ على عداوتهم **﴿إنّ وعد الله﴾** بنصرتك وإظهار دينك على الدين كله **﴿حق﴾** لا بدّ من إنجازه والوفاء به، ولا يحملنك على الخفة والقلق جزعًا مما يقولون ويفعلون فإنهم قوم شاكون ضالون لا يستبدع منهم ذلك وقرئ بتخفيف النون، وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب ولا يستحقنك أي: لا يفتننك فيملكوك ويكونوا أحق بك من المؤمنين. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبح الله بين السماء، والأرض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة لقمان مكية

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾.

﴿الكتاب الحكيم﴾ ذي الحكمة أو وصف بصفة الله تعالى على الإسناد المجازي ويجوز أن يكون الأصل الحكيم قائله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فبانقلابه مرفوعًا بعد الجر استكن في الصفة المشبهة بعد.

هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾.

﴿هدى ورحمة﴾ بالنصب على الحال عن الآيات والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة وبالرفع على أنه خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف **﴿للمحسنين﴾** للذين يعملون الحسنات وهي التي ذكرها من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيقان بالآخرة ونظيره قول أوس الألمعي:

الذي يظن بك الظن كان قد رأى وقد سمعا

حكى عن الأصمعي أنه سئل عن الألمعي فأنشده ولم يزد أو للذين يعملون جميع ما يحسن من الأعمال ثم خص منهم القائمين بهذه الثلاث بفضل اعتداد بها، اللهو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعني.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾.

﴿لهو الحديث﴾ نحو السمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام، وما لا ينبغي من كان وكان ونحو الغناء وتعلم الموسيقار وما أشبه ذلك وقيل: نزلت في النضر بن الحرث، وكان يتجر إلى فارس فيشتري كتب الأعاجم فيحدث بها قريشًا ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود، فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن وقيل: كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول أطعميه واسقيه وغنيه ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام، وأن تقاتل بين يديه وفي حديث النبي ﷺ: «لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا التجارة فيهنّ ولا أثمانهنّ»[2] وعنه ﷺ: «ما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر

---

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في التفسير، الزيلعي 3/63.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: البيوع، باب: ما جاء في كراهية بيع= = المغنيات (الحديث رقم: 1282)، وأحمد في المسند 5/264.

على هذا المنكب، فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت»[1] وقيل: الغناء منفدة للمال مسخطة للرب مفسدة للقلب.

فإن قُلْتَ: ما معنى إضافة اللهو إلى الحديث! **قُلْتُ:** معناه التبيين وهي الإضافة بمعنى من وأن يضاف الشيء إلى ما هو منه كقولك: صفة خز وباب ساج والمعنى من يشتري اللهو من الحديث؛ لأن اللهو يكون من الحديث، ومن غيره فبين بالحديث والمراد بالحديث الحديث المنكر كما جاء في الحديث الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش[2]، ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى من التبعيضية كأنه قيل: ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذي هو اللهو منه، وقوله: يشتري إمّا من الشراء على ما روي عن النضر من شراء كتب الأعاجم أو من شراء القيان وأما من قوله: اشتروا الكفر بالإيمان أي: استبدلوه منه واختاروه عليه وعن قتادة اشتراؤه استحبابه يختار حديث الباطل على حديث الحق وقرئ ﴿ليضل﴾ بضم الياء وفتحها و ﴿سبيل الله﴾ دين الإسلام أو القرآن.

فإن قُلْتَ: القراءة بالضم بينة لأن النضر كان غرضه باشتراء اللهو أن يصدّ الناس عن الدخول في الإسلام واستماع القرآن ويضلهم عنه فما معنى القراءة بالفتح؟ **قُلْتُ:** فيه معنيان: أحدهما ليثبت على ضلاله الذي كان عليه ولا يصدف عنه ويزيد فيه ويمدّه فإن المخذول كان شديد الشكيمة في عداوة الدين وصدّ الناس عنه والثاني: أن يوضع ليضِلَّ موضع ليضِل من قِبَل أنَّ مَنْ أضل كان ضالاً لا محالة فسل بالرديف على المردوف.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله ﴿بغير علم﴾؟ **قُلْتُ:** لما جعله مشتريًا لهو الحديث بالقرآن قال: يشتري بغير علم بالتجارة وبغير بصيرة بها حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق ونحوه قوله تعالى: ﴿فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ أي: وما كانوا مهتدين للتجارة بصراء بها، وقرئ ﴿ويتخذها﴾ بالنصب والرفع عطفًا على يشتري أو ليضل والضمير للسبيل؛ لأنها مؤنثة كقوله تعالى: ﴿وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا﴾.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾.

﴿ولّى مستكبراً﴾ زامًا لا يعبأ بها ولا يرفع بها رأسًا. تشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع ﴿كان في أذنيه وقرًا﴾ أي ثقلاً ولا وقر فيهما وقرئ بسكون الذال.

فإن قُلْتَ: ما محل الجملتين المصدرتين بكأن! **قُلْتُ:** الأولى حال من ﴿مستكبرًا﴾ والثانية مَن ﴿لم يسمعها﴾، ويجوز أن تكونا استئنافين والأصل في كأن المخففة كأنه والضمير ضمير الشأن.

خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾.

﴿وعد الله حقًا﴾ مصدران مؤكدان الأوّل مؤكد لنفسه، والثاني مؤكد لغيره لأن قوله لهم: جنات النعيم في معنى وعدهم الله جنات النعيم فأكد معنى الوعد بالوعد وأما حقًا فدال على معنى الثبات أكد به معنى الوعد ومؤكدهما جميعًا قوله لهم: جنات النعيم ﴿وهو العزيز﴾ الذي لا يغلبه شيء ولا يعجزه يَقْدِرُ على الشيء وضده فيعطي النعيم من شاء والبؤس من شاء وهو ﴿الحكيم﴾ لا يشاء إلا ما توجبه الحكمة والعدل.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾.

﴿ترونها﴾ الضمير فيه للسموات، وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله: ﴿بغير عمد﴾ كما تقول لصاحبك أنا بلا سيف ولا رمح تراني.

فإن قُلْتَ: ما محلها من الإعراب؟ **قُلْتُ:** لا محل لها لأنها مستأنفة أو هي في محل الجرّ صفة للعمد أي بغير عمد مرئية يعني: أنه عمدها بعمد لا ترى وهي إمساكها بقدرته ﴿هذا﴾ إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته.

هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾.

والخلق بمعنى المخلوق و ﴿الذين من دونه﴾ آلهتهم بَكَّتَهُم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلقه الله وأنشأه فأروني ماذا خَلَقَتْه آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة، ثم اضْرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورّط في ضلال ليس بعده ضلال.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾.

هو لقمان بن باعورًا ابن أخت أيوب أو ابن خالته وقيل: كان من أولاد آزر وعاش ألف سنة وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل: مبعث داود عليه السلام فلما بعث قطع الفتوى فقيل له فقال: ألا أكتفي إذا كفيت وقيل: كان قاضيًا في بني إسرائيل وأكثر الأقاويل أنه كان حكيمًا ولم يكن نبيًا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لقمان لم يكن نبيًا ولا ملكًا ولكن كان راعيًا أسود فرزقه الله العتق ورضي قوله ووصيته فقص أمره في القرآن لتمسكوا

(1) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: ما لا يحل بيعه (الحديث رقم: 2168)، رواه الطبراني وأبو يعلى.

(2) تقدم تخريجه سابقاً.

بوصيته وقال عكرمة والشعبي: كان نبيًا وقيل: خُيّر بين النبوّة والحكمة فاختار الحكمة[1] وعن ابن المسيب كان أسود من سودان مصر خياطًا وعن مجاهد كان عبدًا أسود غليظ الشفتين متشقق القدمين، وقيل: كان نجارًا وقيل: كان راعيًا وقيل: كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة وعنه أنه قال: لرجل ينظر إليه إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض، وروي أن رجلاً وقف عليه في مجلسه فقال: ألست الذي ترى ترعى معي في مكان كذا قال: بلى قال: ما بلغ بك ما أرى قال صدق الحديث والصمت عما لا يعنيني وروي أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع وقد لين الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت فلما أتمها لبسها، وقال: نعم، لبوس الحرب أنت فقال: الصمت حكمة وقليل فاعله فقال له داود: بحق ما سميت حكيماً وروي أن مولاه أمره بذبح شاة، وبأن يخرج منها أطيب مضغتين فأخرج اللسان والقلب ثم أمره بمثل ذلك بعد أيام وأن يخرج أخبث مضغتين، فأخرج اللسان والقلب فسأله عن ذلك فقال هما: أطيب ما فيها إذا طابا وأخبث ما فيها إذا خبثا وعن سعيد بن المسيب أنه قال لأسود: لا تحزن، فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان بلال ومهجع مولى عمر ولقمان ﴿إن﴾ هي المفسرة لأنّ إيتاء الحكمة في معنى القول، وقد نبّه الله سبحانه على أنّ الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما وعبادة الله، والشكر له حيث فسّر إيتاء الحكمة بالبعث على الشكر ﴿غني﴾ غير محتاج إلى الشكر ﴿حميد﴾ حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد.

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾.

قيل كان اسم ابنه أنعم وقال الكلبي: أشكم وقيل: كان ابنه وامرأته كافرين فما زال بهما حتى أسلما ﴿لظلم عظيم﴾ لأنّ التسوية بين من لا نعمة إلا هي منه ومن لا نعمة منه البتة ولا يتصوّر أن تكون منه ظلم لا يكتنه عظمه.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾.

أي ﴿حملته﴾ تهن ﴿وهنًا على وهن﴾ كقولك: رجع عودًا على بدء بمعنى يعود عودًا على بدء وهو في موضع الحال، والمعنى: أنها تضعف ضعفًا فوق ضعف أي: يتزايد ضعفها ويتضاعف لأنّ الحمل كلما ازداد وعظم ازدادت ثقلاً وضعفًا، وقرئ ﴿وهنًا على وَهَن﴾ بالتحريك عن أبي عمر ويقال: وهن يوهن ووهن يهن وقرئ: ﴿وفصاله﴾ ﴿أن اشكر﴾ تفسير لوصينا.

﴿ما ليس لك به علم﴾ أراد بنفي العلم به نفيه أي: لا تشرك بي ما ليس بشيء[2] يريد الأصنام كقوله تعالى: ﴿ما يدعون من دونه من شيء﴾[3] ﴿معروفًا﴾ صحابًا أو مصاحبًا معروفًا حسنًا بخلق جميل وحلم واحتمال وبر وصلة وما يقتضيه الكرم والمروءة ﴿واتبع سبيل من أناب إلي﴾ يريد واتبع سبيل المؤمنين في دينك ولا تتبع سبيلهما فيه، وإن كنت مأمورًا بحسن مصاحبتهما في الدنيا، ثم إليَّ مرجعك ومرجعهما فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما علم بذلك حكم الدنيا، وما يجب على الإنسان في صحبتهما ومعاشرتهما من مراعاة حق الأبوة وتعظيمه وما لهما من المواجب التي لا يسوغ الإخلال بها، ثم بين حكمهما وحالهما في الآخرة وروي أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص وأمه وفي القصة أنها مكثت ثلاثًا لا تطعم ولا تشرب حتى شجروا فاها بعود وروي أنه قال: لو كانت لها سبعون نفسًا فخرجت لما ارتددت إلى الكفر.

فإن قُلْتَ: هذا الكلام كيف وقع في أثناء وصية لقمان؟ قُلْتُ: هو كلام اعترض به على سبيل الاستطراد تأكيدًا لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك.

فإن قُلْتَ: فقوله: ﴿حملته أمه وهنًا على وهن وفصاله في عامين﴾ كيف اعترض به بين المفسر والمفسر؟ قُلْتُ: لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب في حمله وفصاله هذه المدة المتطاولة ايجابًا للتوصية بالوالدة خصوصًا وتذكيرًا بحقها العظيم مفردًا[4] ومن ثم قال رسول الله ﷺ لمن قال له: من أبر؟: «أمك، ثم أمك ثم أمك» ثم قال: بعد ذلك ثم: «أباك»[5] وعن بعض العرب أنه حمل أمه إلى الحج على ظهره وهو يقول في

---

(1) قال أحمد: وفي هذا بعد بين وذلك أن الحكمة داخلة في النبوّة وقطرة من بحرها، وأعلى درجات الحكماء تنحط عن أدنى درجات الأنبياء بما لا يقدّر قدره، وليس من الحكمة اختيار الحكمة المجرّدة من النبوّة.

(2) سورة العنكبوت، الآية: 42.

(3) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في بر الوالدين، (الحديث رقم: 5139)، والترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في بر الوالدين، (الحديث: 1897)، وأخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: = البر والصلة، (الحديث رقم: 5971)، ومسلم في كتاب: البر والصلة، والأدب، باب: بر الوالدين، (الحديث رقم: 1/3548).

(4) قال أحمد: هو من باب قوله:

على لاحب لا يهتدى بمناره

أي ما ليس بإله فيكون لك علم بالإلهية، وليس كما نكره في قول فرعون: ما علمت لكم من إله غيري، وقد مرّ معناه فيما تقدم.

(5) قال أحمد: وهذا من قبيل ما يقوله الفقهاء: أنّ اللام من عمل الولد قبل الحلم جله، وهو مما يفيد تأكيد حقها والله أعلم.

حدائه بنفسه:

أحمل أمي وهي الحمالة ترضعني الدرّة والعلالة
ولا يجازي والد فعاله

فإن قُلْتَ: ما معنى توقيت الفصال بالعامين! قُلْتُ: المعنى في توقيته بهذه المدة أنها الغاية التي لا تتجاوز، والأمر فيما دون العامين موكول إلى اجتهاد الأم إن علمت أنه يقوي على الفطام فلها أن تفطمه ويدل عليه قوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾[1] وبه استشهد الشافعي رضي الله عنه على أن مدة الرضاع سنتان لا تثبت حرمة الرضاع بعد انقضائهما، وهو مذهب أبي يوسف ومحمد وأما عند أبي حنيفة رضي الله عنه فمدة الرضاع ثلاثون شهرًا وعن أبي حنيفة إن فطمته قبل العامين فاستغنى بالطعام، ثم أرضعته لم يكن رضاعًا وإن أكل أكلاً ضعيفًا لم يستغن به عن الرضاع ثم أرضعه، فهو رضاع محرم.

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾.

قرئ: ﴿مثقال حبة﴾ بالنصب والرفع، فمن نصب كان الضمير للهنة من الإساءة أو الإحسان أي إن كانت مثلاً في الصغر والقماءة كحبة الخردل، فكانت مع صغرها في أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة[2]، أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلي ﴿يات بها الله﴾ يوم القيامة فيحاسب بها عاملها ﴿إن الله لطيف﴾ يتوصل علمه إلى كل خفي ﴿خبير﴾ عالم بكنهه وعن قتادة لطيف باستخراجها خبير بمستقرّها، ومن قرأ بالرفع كان ضمير القصة وإنما أنث المثقال لإضافته إلى الحبة كما قال. كما شرقت صدر القناة من الدم، وروي أنّ ابن لقمان قال له: أرأيت الحبة تكون في مقل البحر أي في مغاصه يعلمها الله فقال: إنّ الله يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة لأنّ الحبة في الصخرة أخفى منها في الماء وقيل: الصخرة هي التي تحت الأرض وهي السِّجّين يكتب فيها أعمال الكفار، وقرئ: فتكن بكسر الكاف من وكن الطائر يكن إذا استقر في وكنته وهي مقره ليلاً.

يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾.

﴿واصبر على ما أصابك﴾، يجوز أن يكون عامًا في كل ما يصيبه من المحن وأن يكون خاصًا بما يصيبه فيما أُمِرَ به من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من أذى من يبعثهم إلى الخير وينكر عليهم الشر ﴿إنّ ذلك﴾ مما عزمه الله من الأمور أي قطعه قطع إيجاب وإلزام، ومنه الحديث: «لا صيام لمن لم يعزم الصيام من الليل»[3] أي لم يقطعه بالنية ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «لمن لم يبيت الصيام»[4] ومنه: «إنّ الله يحب أن يؤخذ برُخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه» وقولهم: عزمة من عزمات ربنا ومنه عزمات الملوك، ونلك أن يقول الملك لبعض من تحت يده عزمت عليك إلا فعلت كذا إذا قال: نلك لم يكن للمعزوم عليه بد من فعله، ولا مندوحة في تركه وحقيقته أنه من تسمية المفعول بالمصدر وأصله من معزومات الأمور أي مقطوعاتها ومفروضاتها ويجوز أن يكون مصدرًا في معنى الفاعل أصله من عازمات الأمور من قوله تعالى: ﴿فإذا عزم الأمر﴾ كقولك: جد الأمر وَصَدَقَ القتال وناهيك بهذه الآية مؤذنة بقدم هذه الطاعات وأنها كانت مأمورًا بها في سائر الأمم وأنّ الصلاة لم تزل عظيمة الشأن سابقة القدم على ما سواها موصى بها في الأديان كلها.

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾.

تصاعر وتصعر بالتشديد والتخفيف يقال: أصعر خده وصعره وصاعره كقولك: أعلاه وعلاه وعالاه بمعنى والصعر والصيد داء يصيب البعير يلوي منه عنقه، والمعنى: أقبل على الناس بوجهك تواضعًا ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعل المتكبرون. أراد ﴿ولا تمش﴾ تمرح ﴿مرحًا﴾ أو أوقع المصدر موقع الحال بمعنى مَرِحًا، ويجوز أن يريد ولا تمش لأجل المرح والأشر أي لا يكن غرضك في المشي البطالة والأشر كما يمشي كثير من الناس لذلك لا لكفاية مُهم ديني، أو دنيوي ونحوه قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس﴾[5] والمختال مقابل للماشي مرحًا وكذلك الفخور للمصعر خدّه كبرًا.

وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾.

﴿واقصد في مشيك﴾، واعدل فيه حتى يكون مشيًا بين مشيين لا تدب دبيب المتماوتين ولا تثب وثيب الشطار قال رسول الله ﷺ: سرعة المشي تذهب بها المؤمن[6]

---

(1) سورة البقرة، الآية: 233.

(2) قال أحمد: يعني: أنه تمم خفاءها في نفسها بخفاء مكانها من الصخرة، وهو من واد قولها كأنه علم في رأسه نار.

(3) ذكره الزيلعي في «نصب الراية» (2/433).

(4) أخرجه أبو داود في كتاب: الصوم، باب: النية في الصيام (الحديث: 2454) وأخرجه الترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء لا صيام = لمن لم يعزم من الليل (الحديث: 730) وأخرجه النسائي في كتاب: الصيام، باب: ذكر اختلاف الناقلين (الحديث: 2330) وأخرجه ابن ماجه في كتاب الصيام، باب: ما جاء في فرض الصوم (الحديث: 1700).

(5) سورة الأنفال، الآية: 47.

(6) رواه أبو نعيم في الحلية 10/290.

وأما قول عائشة في عمر رضي الله عنهما: كان إذا مشى أسرع[1] فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت، وقرئ: ﴿واقصد﴾ بقطع الهمزة أي: سدد في مشيك من أقصد الرامي إذا سدّد سهمه نحو الرمية ﴿واغضض من صوتك﴾ وانقص منه واقصر من قولك: فلان يغض من فلان إذا قصر به ووضع منه ﴿أنكر الأصوات﴾ أوحشها من قولك شيء نكر إذا أنكرته النفوس واستوحشت منه ونفرت والحمار مثل في الذم والبليغ والشتيمة وكذلك نهاقه ومن استفحاشهم لذكره مجردًا وتفاديهم من اسمه أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح به فيقولون الطويل الأذنين كما يكنى عن الأشياء المستقذرة وقد عد في مساوي الآداب أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أولى المروءة، ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافًا، وإن بلغت منه الرجلة فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مخرج الاستعارة وإن جعلوا حميرًا وصوتهم نهاقًا مبالغة شديدة في الذم والتهجين وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت، والترغيب عنه وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان.

فإن قُلْتَ: لم وحد صوت الحمير ولم يجمع؟ **قُلْتُ:** ليس المراد أن ينكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع، وإنما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق له صوت وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب توحيده.

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾.

﴿ما في السمٰوات﴾ الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك ﴿وما في الأرض﴾ البحار والأنهار والمعادن والدواب، وما لا يحصى ﴿وأسبغ﴾ وقرئ بالسين والصاد وهكذا كل سين اجتمع معه الغين والخاء والقاف تقول: في سلخ صلخ وفي سقر صقر وفي سالغ صالغ وقرئ: نعمه ونعمة ونعمته.

فإن قُلْتَ: ما النعمة! **قُلْتُ:** كل نفع قصد به الإحسان والله تعالى خالق العالم كله نعمة؛ لأنه إمّا حيوان وإمّا غير حيوان فما ليس بحيوان نعمة على الحيوان من حيث أنّ إيجاده حيًا نعمة عليه لأنه لولا إيجاده حيًا لما صح منه الانتفاع وكل ما أدّى إلى الانتفاع وصححه فهو نعمة.

فإن قُلْتَ: لم كان خلق العالم مقصودًا به الإحسان؟ **قُلْتُ:** لأنه لا يخلقه إلا لغرض وإلا كان عبثًا والعبث لا يجوز عليه، ولا يجوز أن يكون لغرض راجع إليه من نفع؛ لأنه غني غير محتاج إلى المنافع فلم يبق إلا أن يكون لغرض يرجع إلى الحيوان وهو نفعه.

فإن قُلْتَ: فما معنى الظاهرة والباطنة **قُلْتُ:** الظاهرة كل ما يعلم بالمشاهدة والباطنة ما لا يعلم إلا بدليل أو لا يعلم أصلاً فكم في بدن الإنسان من نعمة لا يعلمها ولا يهتدى إلى العلم بها وقد أكثروا في ذلك فعن مجاهد الظاهرة ظهور الإسلام والنصرة على الأعداء والباطنة الإمداد من الملائكة وعن الحسن رضي الله عنه الظاهرة الإسلام والباطنة الستر، وعن الضحاك الظاهرة حسن الصورة وامتداد القامة وتسوية الأعضاء والباطنة المعرفة وقيل: الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة والباطنة القلب والعقل والفهم وما أشبه ذلك ويروى في دعاء موسى عليه السلام إلهي دلني على أخفى نعمتك على عبادك، فقال: أخفى نعمتي عليهم النفس ويروى أن أيسر ما يعذب به أهل النار الأخذ بالأنفاس[2].

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾.

معناه (أ) يتبعونهم ﴿لو كان الشيطان يدعوهم﴾ أي في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب.

۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾.

قرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿ومن يسلم﴾ بالتشديد يقال: أسلم أمرك وسلم أمرك إلى الله.

فإن قُلْتَ: ماله عدّي بإلى وقد عدّى باللام في قوله بلى من أسلم وجهه لله! **قُلْتُ:** معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالمًا لله أي: خالصًا له ومعناه مع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دُفِعَ إليه والمراد: التوكل عليه والتفويض إليه ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ من باب التمثيل مُثِّلَتْ حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه ﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾ أي هي صائرة إليه.

وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾.

قرئ يحزنك ويحزنك من حزن وأحزن والذي عليه الاستعمال المستفيض أحزنه ويحزنه، والمعنى: لا يهمنك كفر من كفر وكيده للإسلام فإنّ الله عزّ وجلّ دافع كيده في نحره ومنتقم منه ومعاقبه على عمله ﴿إنّ الله﴾ يعلم

(1) قال الزيلعي غريب، وفي النهاية لابن الأثير، عن عائشة: كان عمر إذا مشى أسرع...» وعن ابن سعد عن الشفاء بنت عبد الله 30/76.

(2) قال الزيلعي غريب جدًا 3/77.

ما في صدور عباده فيفعل بهم على حسبه.

نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾.

﴿نمتعهم﴾ زمانًا **﴿قليلاً﴾** بدنياهم **﴿ثم نضطرّهم إلى عذاب غليظ﴾** شبّه إلزامهم التعذيب وإرهاقهم إياه باضطرار المضطرّ إلى الشيء الذي لا يقدر على الانفكاك منه[1] والغلظ مستعار من الأجرام الغليظة والمراد الشدّة والثقل على المعذب.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾.

﴿قل الحمد لله﴾ ألزم لهم على إقرارهم بأنّ الذي خلق السموات والأرض هو الله وحده وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر وأن لا يعبد معه غيره ثم قال: **﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾** إنّ ذلك يلزمهم وإذا نبهوا عليه لم ينتبهوا.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾.

﴿إنّ الله هو الغني﴾ عن حمد الحامدين المستحق للحمد وإن لم يحمدوه.

وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾.

قرئ **﴿والبحر﴾** بالنصب عطفًا على اسم إنّ وبالرفع عطفًا على محل إن ومعمولها على ولو ثبت كون الأشجار أقلامًا وثبت البحر ممدودًا بسبعة أبحر، أو على الابتداء والواو للحال على معنى ولو أنّ الأشجار أقلام في حال كون البحر ممدودًا وفي قراءة ابن مسعود وبحر يمدّه على التنكير، ويجب أن يحمل هذا على الوجه الأوّل. وقرئ يمدّه ويمدّه وبالتاء والياء.

فإن قُلْتَ: كان مقتضى الكلام أن يقال: ولو أنّ الشجر أقلام والبحر مداد **قُلْتُ:** أغنى عن ذكر المداد قوله: يمدّه لأنه من قولك مدّ الدواة وأمدّها جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مدادًا فهي تصب فيه مدادها أبدًا صبًا لا ينقطع والمعنى ولو أنّ أشجار الأرض أقلام والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله لما نفدت كلماته ونفدت الأقلام والمداد كقوله تعالى: ﴿قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي﴾[2].

فإن قُلْتَ: زعمت أنّ قوله والبحر يمدّه حال في أحد وجهي الرفع وليس فيه ضمير راجع إلى ذي الحال **قُلْتُ:** هو كقوله: وقد اغتدى والطير في وكناتها، وجئت والجيش مصطف وما أشبه ذلك من الأحوال التي حكمها حكم الظروف ويجوز أن يكون المعنى وبحرها والضمير للأرض.

فإن قُلْتَ: لم قيل من شجرة على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر؟ **قُلْتُ:** أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر، ولا واحدة إلا قد بريت أقلامًا.

فإن قُلْتَ: الكلمات جمع قلة والموضع موضع التكثير لا التقليل، فهلا قيل كلم الله! **قُلْتُ:** معناه: إنّ كلماته لا تفي بكتبتها البحار فكيف بكلمه وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت جوابًا لليهود لما قالوا قد أوتينا التوراة وفيها كل الحكمة وقيل: إن المشركين قالوا: إنّ هذا يعنون الوحي كلام سينفد، فاعلم الله أن كلامه لا ينفد وهذه الآية عند بعضهم مدنية وأنها نزلت بعد الهجرة وقيل: هي مكية وإنما أمر اليهود وفد قريش أن يقولوا لرسول الله ﷺ ألست تتلوا فيما أنزل عليك إنا قد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء **﴿إنّ الله عزيز﴾** لا يعجزه شيء **﴿حكيم﴾** لا يخرج من علمه وحكمته شيء ومثله لا تنفد كلماته وحكمه.

مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾.

﴿إلا كنفس واحدة﴾ إلا كخلقها وبعثها أي سواء في قدرته القليل والكثير. الواحد والجمع لا يتفاوت وذلك أنه إنما كانت تتفاوت النفس الواحدة والنفوس الكثيرة العدد أن لو شغله شأن عن شأن وفعل عن فعل وقد تعالى عن ذلك **﴿إنّ الله سميع بصير﴾** يسمع كل صوت، ويبصر كل مبصر في حالة واحدة لا يشغله إدراك بعضها عن إدراك بعض فكذلك الخلق والبعث.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾.

كل واحد من الشمس والقمر يجري في فلكه ويقطعه إلى وقت معلوم الشمس إلى آخر السنة والقمر إلى آخر الشهر وعن الحسن الأجل المسمى يوم القيامة؛ لأنه لا ينقطع جريهما إلا حينئذ دلّ أيضًا بالليل والنهار وتعاقبهما وزيادتهما ونقصانهما، وجرى النيرين في فلكيهما كل ذلك على تقدير وحساب وبإحاطته بجميع

---

(1) قال أحمد: وتفسير هذا الاضطرار في الحديث في أنهم لشدة ما يكابدون من النار يطلبون البرد، فيرسل الله عليهم الزمهرير، فيكون عليهم كشدّة اللهب، فيتمنون عود اللهب اضطراراً، فهو= = إخبار عن اضطرار وبأذيال هذه البلاغة تعلق الكندي حيث يقول:

يرون الموت قداما وخلفا فيختارون والموت اضطرار

(2) سورة الكهف، الآية: 109.

أعمال الخلق على عظم قدرته وحكمته.

فإن قُلْتَ: يجري لأجل مسمى، ويجرى إلى أجل مسمى أهو من تعاقب الحرفين! **قُلْتُ:** كلا ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن، ولكن المعنيين أعني الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض لأنّ قولك يجري إلى أجل مسمى معناه يبلغه وينتهي إليه، وقولك: يجري لأجل مسمى تريد يجرى لإدراك أجل مسمى تجعل الجرى مختصًا بإدراك أجل مسمى ألا ترى أن جري الشمس مختص بآخر السنة وجري القمر مختص بآخر الشهر فكلا المعنيين غير ناب به موضعه **﴿ذلك﴾** الذي وصف من عجائب قدرته، وحكمته التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون فكيف بالجماد الذي تدعونه من دون الله إنما هو بسبب أنه هو الحق الثابت إلهيته وأنّ من دونه باطل الإلهية.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾.

﴿وأن الله هو العليّ﴾ الشأن **﴿الكبير﴾** السلطان أو ذلك الذي أوحى إليك من هذه الآيات بسبب بيان أنّ الله هو الحقّ وأنّ إلهًا غيره باطل وأنّ الله هو العليّ الكبير عن أن يشرك به.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾.

قرئ: **﴿الفلك﴾** بضم اللام، وكل فُعْل يجوز فيه فُعُل كما يجوز في كل فعل فعل على مذهب التعويض، وبنعمات الله بسكون العين وعين فعلات يجوز فيها الفتح والكسر والسكون **﴿بنعمة الله﴾** بإحسانه ورحمته **﴿صبار﴾** على بلائه **﴿شكور﴾** لنعمائه وهما صفتا المؤمن فكأنه قال: إنّ في ذلك لآيات لكل مؤمن.

وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾.

يرتفع الموج ويتراكب فيعود مثل الظلّ والظلة كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما، وقرئ كالظلال جمع ظلة كقلة وقلال **﴿فمنهم مقتصد﴾** متوسط في الكفر والظلم خفض من غلوائه وانزجر بعض الانزجار أو مقتصد في الإخلاص الذي كان عليه في البحر يعني: أنّ ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قط والمقتصد قليل نادر، وقيل: مؤمن قد ثبت على ما عاهد عليه الله في البحر والختر أشدّ الغدر ومنه قولهم: إنك لا تمدّ لنا شبرًا من غدر إلا مددنا لك باعًا من ختر قال:

وإنك لو رأيت أبا عمير ... ملأت يديك من غدر وختر

﴿لا يجزى﴾ لا يقضي عنه شيئًا ومنه قيل: للمتقاضي المتجازي وفي الحديث في جذاعة بن نيار تجزى عنك ولا تجزى عن أحد بعدك[1].

وقرئ لا يجزئ لا يغنى يقال: أجزأت عنك مجزأ فلان والمعنى: لا يجزى فيه، فحذف **﴿الغرور﴾** الشيطان وقيل الدنيا وقيل تمنيكم في المعصية المغفرة وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه الغرّة بالله أن يتمادى الرجل في المعصية، ويتمنى على الله المغفرة وقيل: نكرك لحسناتك ونسيانك لسيئاتك غرّه وقرئ بضم الغين وهو مصدر غرّه غرورًا وجعل الغرور غارًّا كما قيل: جدّ جدّه أو أريد زينة الدنيا لأنها غرور.

فإن قُلْتَ: قوله: **﴿ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا﴾**، وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه؟ **قُلْتُ:** الأمر كذلك لأنّ الجملة الإسمية آكد من الفعلية وقد انضم إلى ذلك قوله هو وقوله مولود والسبب في مجيئه على هذا السنن أنّ الخطاب للمؤمنين[2] وعليهم قبض آباؤهم على الكفر، وعلى الدين الجاهلي فأريد حسم أطماعهم وأطماع الناس فيهم أن ينفعوا آباءهم في الآخرة وأن يشفعوا لهم، وأن يغنوا عنهم من الله شيئًا فلذلك جيء به على الطريق الآكد ومعنى التوكيد في لفظ المولود: أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه لم تقبل شفاعته فضلاً أن يشفع لمن فوقه من أجداده؛ لأنّ الولد يقع على الولد وولد الولد بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك.

إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾.

روى أنّ رجلاً من محارب، وهو الحرث بن عمرو بن حارثة أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: أخبرني عن الساعة متى قيامها، وإني قد ألقيت حباتي في الأرض وقد أبطأت عنا السماء فمتى تمطر واخبرني عن امرأتي فقد اشتملت ما في بطنها أذكر أم أنثى وإني علمت ما

(1) تقدم في البقرة رقم (49).

(2) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص: 196.

علمت أمس فما أعمل غدًا وهذا مولدي قد عرفته فأين أموت[1]، فنزلت وعن النبي ﷺ مفاتح الغيب خمس وتلا هذه الآية[2]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب إياكم والكهانة فإنّ الكهانة تدعو إلى الشرك والشرك وأهله في النار وعن المنصور أنه أهمه معرفة مدّة عمره فرأى في منامه كأن خيالاً أخرج يده من البحر، وأشار إليه بالأصابع الخمس فاستفتى العلماء في ذلك فتأولوها بخمس سنين وبخمسة أشهر وبغير ذلك حتى قال أبو حنيفة رحمه الله تأويلها: أن مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، وأن ما طلبت معرفته لا سبيل لك إليه ﴿عنده علم الساعة﴾ أيان مرساها ﴿وينزل الغيث﴾ في إبانه من غير تقديم ولا تأخير وفي بلد لا يتجاوزه به ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ أذكر أم أنثى أتام أم ناقص، وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال ﴿وما تدري نفس﴾ برة، أو فاجرة ﴿ماذا تكسب غدًا﴾ من خير أو شر وربما كانت عازمة على خير فعملت شرًا وعازمة على شر، فعملت خيرًا ﴿وما تدري نفس﴾ أين تموت وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت: لا أبرحها، وأقبر فيها فترمى بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها ولا حدّثتها به ظنونها وروى أنّ ملك الموت مرّ على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فقال الرجل: من هذا قال: ملك الموت فقال: كأنه يريدني وسأل سليمان أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل، ثم قال: ملك الموت لسليمان كان دوام نظري إليه تعجبًا منه لأني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك[3] وجعل العلم لله والدراية للعبد لما في الدراية من معنى: الختل والحيلة والمعنى أنها لا تعرف إن أعملت حيلها ما يلصق بها ويختص ولا يتخطاها ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما كان من معرفة ما عداهما أبعد، وقرئ بأية أرض وشبه سيبويه تانيث أي بتانيث كل في قولهم كلتهنّ عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقًا يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشرًا عشرًا بعدد من عمل المعروف ونهى عن المنكر[4].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة السجدة مكية

الٓمٓ ﴿١﴾.

﴿الٓمٓ﴾ على أنها اسم السورة مبتدأ خبره.

تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾.

﴿تنزيل الكتاب﴾ وإن جعلتها تعديدًا للحروف ارتفع تنزيل الكتاب بأنه خبر مبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ خبره ﴿لا ريب فيه﴾ والوجه أن يرتفع بالابتداء وخبره ﴿من رب العالمين﴾ ولا ريب فيه اعتراض لا محل له والضمير في فيه راجع إلى مضمون الجملة كأنه قيل: لا ريب في ذلك أي في كونه منزلاً من رب العالمين ويشهد لوجاهته قوله:

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾.

﴿أم يقولون افتراه﴾ لأن قولهم هذا مفترى إنكار: لأن يكون من رب العالمين وكذلك قوله ﴿بل هو الحق من ربك﴾، وما فيه من تقدير أنه من الله وهذا أسلوب صحيح محكم أثبت أوّلا أن تنزيله من رب العالمين وأن ذلك ما لا ريب فيه، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله: ﴿أم يقولون افتراه﴾ لأن أم هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة إنكارًا لقولهم وتعجيبًا منه لظهور أمره في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك ونظيره أن يعلل العالم في المسئلة بعلة صحيحة جامعة قد احترز فيها أنواع الاحتراز كقول المتكلمين النظر أوّل الأفعال الواجبة على الإطلاق التي لا يعرى عن وجوبها مكلف، ثم يعترض عليه فيها ببعض ما وقع احترازه منه فيرده بتلخيص أنه احترز من ذلك، ثم يعود إلى تقرير كلامه وتمشيته.

فإن قُلْتَ: كيف نفى أن يرتاب في أنه من الله وقد أثبت ما هو أطم من الريب، وهو قولهم افتراه! **قُلْتُ:** معنى لا ريب فيه أن لا مدخل للريب في أنه تنزيل الله؛ لأن نافي الريب ومميطه معه لا ينفك عنه، وهو كونه معجزًا للبشر

---

(1) قال أحمد: وهذا الجواب تتوقف صحته على أنّ هذا الخطاب كان خاصّاً بالموجودين حينئذ، والصحيح أنه عام لهم، ولكل من ينطلق عليه اسم الناس، فالجواب المعتبر والله أعلم، أنّ الله تعالى لما أكد الوصية على الآباء، وقرن شكرهم بوجوب شكره عزّ وجلّ، وأوجب على الولد أن يكفي والده ما يسوءه بحسب نهاية إمكانه قطع ههنا، وهم الوالد في أن يكون الولد في القيامة مجزيه بحقه عليه، ويكفيه ما يلقاه من أهوال القيامة، كما أوجب الله عليه في الدنيا ذلك في حقه، فلما كان إجزاء الولد عن الوالد مظنون = الوقوع؛ لأنّ الله حضه عليه في الدنيا كان جديراً بتأكيد النفي لإزالة هذا الوهم، ولا كذلك العكس فهذا جواب كاف شاف للعليل إن شاء الله تعالى.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، ومن سورة لقمان باب: «إن الله عنده علم الساعة...» (الحديث: 4778).

(3) رواه ابن ابي شيبة 13/205، كتاب: الزهد، باب: كلام سليمان.

(4) ذكره الثعلبي والواحدي وابن مردويه في التفسير 3/79.